رواية

العاشق الجبان

بقلم:

عبدالله عاطف المخلافي

abdullah775313930@gmail.com

العاشق الجبان

جميع الحقوق محفوظة لدى المؤلف©

اسم الكتاب: العاشق الجبان

نوع الكتاب: رواية

الطبعة: الأولى 2019/9/24م

المؤلف: عبدالله عاطف المخلافي

يسمح بنشر أجزاء هذا الكتاب بأي شكل من أشكال النشر الإلكتروني فقط كما هو دون تعديل، ولا يجوز اقتصاص أي جزء من هذا الكتاب بهدف اهدار حقوق الملكية الفكرية أو إعادة انتاجه بشكل مادي أو معنوي إلا بموافقة المؤلف

الإهداء:

إلى من حرمتنا الغربة قُربه... "والدي العزيز"
إلى نبع الحنان، طريق الجنان، "جنة الدنيا أمي"
إلى من شد الله بهما عضدي... "شقيقاي"
إلى قطعتان من قلبي... "شقيقتاي"
إلى من قال لي يوما "استمر"... "عمي الوحيد"
إلى جميع أهلي الأفاضل..
إلى إخوةٍ أنجتهم لي الحياة... "أصدقائي"
إلى كل قارئ..

أهديكم

أعَلى الجمالِ تغارُ منّا؟
ماذا علينا إذْ نظرنا
هيَ نظرةٌ تُنسِيْ الوَقارَ
وتُسعِدُ الرّوحَ المُعنَّى
دنياي أنتِ وفرحتيْ
ومُنَى الفؤادِ إذا تَمنَّى
أنتِ السماءُ بَدَتْ لنا
واستعصمتْ بالبُعدِ عنَّا
هلا رحمتِ متيماً
عصفتْ بهِ الأشواقُ وهناً
وهفت بهِ الذكرى فطافَ
مع الدجى مغناً فمغنىْ

إدريس محمد جُماعه

العاشق الجبان

تنويه:

إن كافة شخصيات وأحداث وتواريخ ومواقف الرواية هي مجرد أفكار من خيال المؤلف؛ وإن كانت بعض التواريخ والأحداث والاسماء مستوحاة من الحقيقة.. فلأن المؤلف قد استعان بذلك كأفكار لروايته، ولا يعني ذلك أنها تمت للحقيقة بأي صله.

مقدمة:

*بين القيم والعادات التي تميز الريف عن الحضر، تربى الشابُ ماجد ذو الواحدِ والعشرونَ عاماً..

ماجد.. شابٌ نشأ وترعرع في إحدى قرى محافظةِ تعز، عاش في مجتمع محافظٍ ينظرُ للحب الذي تفشى في أوساط الشباب بنظرةٍ دونيةٍ سطحيةٍ، على أنهُ وصمة عار لا تغتفر، وذلكَ لأن أكثر قصص الحب المتفشية أصبحت تنتهي بمآس تتفطرُ القلوب كمداً عليها، فمجتمع ماجد نظر للحب بمفهومه الخاطئ الضيق الذي طغى في الأوساط، فجرَّم هذا الفعل تماماً؛ وبرغم عدم قناعةِ ماجد التامة بذلك، إلا أن

تلك القيم والعادات التي تربى عليها طغت على حياته وسَـيَّرته وفق نظامها.

يكبرُ ماجد ويغادر تلك القرية الصغيرة نحو صنعاء ليواصل تعليمه الجامعي، وبرغم الاختلاف الشاسع بين الأفكار التي تربى عليها ماجد وتلك الموجودة في صنعاء إلا أن ماجد لم يتخلى عما تربى عليه، فكما قيل "العلمُ في الصغرِ كالنقشِ على الحجر".

يلتحقُ ماجد بالجامعةِ، لتأسرَ قلبهُ فتاةٍ اسمها راغدة، يتعلقُ قلبُ ماجد بتلك الفتاة، ولأنه لم يعرف اسمها من أولِ وهلةٍ يطلقُ عليها اسم "جمانةُ" من مخيلتِه؛ ماجد شابٌ كثيرُ القراءة للكتب وخاصةً

الروايات منها، وكان قد أعجب بإحدى الروايات كثيراً، كانت بطلةُ تلك الرواية تدعى جمانة، فأطلق هذا الاسم على محبوبته.

يخوضُ ماجد حر باً متناقضةٌ مع نفسه، فتارةً يحاول محاربة فكرة الحب من قلبه، وأخرى يحاول اجتياز العادات والأفكار التي تربى عليها، إلا انه يظل في الوسط لا ترجح به كفة الميزان إلى جانبٍ واحد!

تمرُّ الأيام وقلب ماجد لا يزال معلقا براغدة، يعرفُ عنها الكثير خلال تلك الأيام، وبرغم معرفته لاسمها الحقيقي فيما بعد إلا انه

ظلَّ متمسكاً بالاسمِ الذي أطلقه هو عليها.

في نظرِ ماجد، تسير الأيام على نفس النسق الروتيني المتكرر، أصبح ماجد يحلم بالتغيير دوماً، يُسعد إذا تغير أي شيء في حياته حتى ولو كان بسيطاً، فالمهمُ عندهُ هوَ أن يتغير شيئاً ما!

يظلُّ ماجد رهين العادات، لم يستطع البوح لمحبوبتهِ بما في قلبهِ تجاهها، فيستمر على هذا الحال لأشهر، كل ما يفعلهُ هو كتابة يومياته في دفتره.. يصيغها وكأنه يكلمُ محبوبتهُ مباشرةً ليملأ بذلك الفراغ العاطفي الذي في نفسه، لِيشعرهُ وكأن محبوبتهُ أمامه تستمعُ إليه وهوَ يكلمها

دونَ حواجز، يستمرُ ماجد على هذا الحال حتى يأتي ذلك اليوم الذي يرى فيه ماجد - ولسببٍ تافه- أن الأشياء أخيراً قد بدأت تتغيرُ من حوله؛ يستغلُ ماجد ذلكَ اليوم ليهتف بحبهِ لمحبوبته عن طريقِ رسالةٍ على شكلِ روايةٍ أسماها "العاشقُ الجبان"، جمعَ فيها يومياتهِ وكتاباتهِ السابقة التي كان يوضح فيها كل تفاصيل حبه من أولِ يومٍ رأى فيهِ محبوبتِه وحتى ذلك اليوم الذي قرر فيه إخراج تلك الرسالة.

كانَ ماجد قبل ذلك شخصاً لا يؤمنُ بالحب الذي أنتشر في اوساط الشبابِ والشابات، ذلك لما كان يرى ويسمع -كمجتمعهِ- من نهاياتٍ تعيسةٍ لتلك القصص، فظل مبغضاً

لتلكَ العلاقات متهرباً منها لسنوات، حتى رأى فتاتهُ المنشودة التي غيرت كلَّ أفكاره وجعلتهُ -بدون حولٍ منها- يؤمنُ بأنَّ كل تلك القصص التي سمع عنها لم يكن سبب تعاستها الحب وإنما كان بسبب استخدام مسمى الحب للتلاعب بين أحدِ أو كلا اطرافِ تلك القصص، أما الحب الصادق الذي يشعر بهِ ماجد اليوم فلا يمكن أن يكون له فراق وكره، ففي نظرِ ماجد من يحب بصدق لا يمكن أنْ يشوهَ سمعة محبوبهِ أو يؤذيَّه.!

** أما بالنسبة لراغدة... أو "جمانةُ" كما أسماها ماجد، فهي فتاةٌ في العشرين من عمرها، من نفسِ مدينةِ ماجد، إلا أنَّ هناك*

اختلافٌ كبير بين ثقافاتِ المحافظةِ في مجتمعِ ماجد وثقافات الانفتاح في مجتمع راغدة، فراغدة تعيشُ حياتها بأسلوبِ المدينةِ المتحضرِ المنفتحِ بعضَ الشيء، لكنها لا تعلمُ شيئاً عن ماجد، ذلكَ أنَّ ماجد لمْ يوصل لها حبه بأيِ شكلٍ منَ الأشكالِ قبلَ ذلك.

** "بكيل، سامح" هما صديقا ماجد المقربان، إلا أنهما لا يعلمانِ شيئاً عن قصةِ الحب الكبير التي بطلها صديقهما ماجد، أما "شادي" فهو الوحيد الذي يعلمُ ذلك، فهو صديقُ طفولةِ ماجد، وقد عرف عن تلكَ*

القصةِ من خلالِ الحوار الذي ذكرهُ ماجد في نصِ الرواية.

** تدورُ أحداثُ الروايةِ كاملةً في سياقٍ متناقض، لتظهرَ بذلكَ مدى التناقضات التي تستوطنُ حياة ماجد، فتارةً نجدُ السياق يحرض على الحب ليعكس بذلك الافكار التي رضعها ماجد من مجتمعه، وأخرى نجدُ السياق يعزز من مكانةِ الحبِ ليعكسَ بذلك وجهة النظرِ الطبيعية لماجد خاصةً بعد أن اِنغمس في ذلكَ الحب؛ كان مما يعزز نقيضَ الحبِ أكثر هو نصائح الأم وصديقُ الطفولة لماجد، فالأم بغريزةِ الخوفِ على ابنها - التي جُبلتْ عليها- دائماً ما تحذرُ ماجد من*

الفتياتِ ومن قصصِ الحبِ والتلاعبِ التي باتتْ تسيطرُ على المجتمعات، أما صديقُ الطفولةِ "شادي" فمن خلالِ ما رأى على وجهِ ماجد من آثارِ التعاسةِ، حاولَ ردعهُ بطرقٍ غير مباشرة، وذلك من خلالِ تلميحاتهِ المعتادة.

كلُّ هذا في النص، فلندعِ المجال لماجد ليصورَ لنا -وهو يبحرُ في سردِ قصتهِ مطلقاً العنانَ لقلبهِ- كل لحظةٍ مرتْ عليه منذُ عرفَ محبوبته...

النص:

في الثاني عشرَ منْ فبراير من السنةِ التاسعة عشرَ بعدَ الألفين، وفي صباحِ ذلكَ اليوم، اِستيقظتُ مبكراً على غيرِ عادتي، ذهبتُ إلى الجامعةِ، كانتِ المحاضرةُ مملةٌ كأخواتها، يومي متكررٌ كسائرة، لم يكن من شيءٍ مغاير لذلكَ الروتينُ اللعينُ عدا شيء وحيد، وصولي قبلَ الجميع، بل قبلَ فتحِ قاعةِ المحاضرة، كان ذلك اختلافي الوحيدُ في هذا اليوم، وما عداهُ كصفرٍ على الشمال، ليسَ حتى الآن...!

اِنتظرتُ وصولَ أستاذ المادة ملياً، شربتُ كوباً منَ القهوةِ وواصلتُ اِلانتظار، اِنتظرتُ حتى الملل، بدأَ الطلابُ يهرعون إلى

الجلوسِ فيْ أماكِنهم، أخيراً وصلَ ذلكَ الرجل!... أتى مرتدياً بدلتهُ الأنيقة وغير الأنيقة في الوقتِ ذاته!... يالهُ من ممل، لم أستطعِ التركيزَ معهُ، فقررتُ شغلَ وقتي بالكتابةِ كعادتي، بدأتُ الكتابةَ فوجدتُ صعوبةً في التركيز، لم يكنِ السبب تشتت أفكاري فحسب!، كانَ يقبعُ على الجانبِ الأيسرِ مني صديقي بكيل، كنتُ كلما جمعتُ شتاتَ أفكاري بعثرها بمداخلاتهِ، تلك المداخلاتُ المستهترةُ المثبطة؛ قالَ لي مستهزئاً: "ماجد... لو أنَّ الأمر بيدي لأخذتُ عقلكَ ورشحتُ بهِ على هذهِ الورقةِ لأتخلصَ من هدوئكَ هذا"

عجيبٌ أمركَ يا بكيل!.. تغضبُ منتقداً حينما أتكلم، ويزداد ذلك حينَ أصمت..!

كم أكرهُ منكَ هذا يا بكيل!. أكره تناقضاتك تلك، لكني أحبك أنت، وأحب صداقتي لك..!

ها قد بدأتُ أحبك أكثر يا بكيل.. أتعلم لمَ ذلك..؟!

كلمتني هذه المرة بصوتٍ أكثر إزعاجاً، اِضطررتُ للالتفات إليك، وجهتُ وجهي نحوك بيد أن عيوني تحركت نحو شخص آخر..!

نعم يا بكيل، كان وجهي فقط متوجهٌ نحوك، وكل جوارحي متوجهةٌ نحوها!.. رأيتها لأولِ مرة.. كانت جالسة بوقار على الجانبِ

الأيسرِ منا، كاشفةٌ وجهها، متوسطةُ القامة، بيضاءةُ البشرة، شديدةُ سوادِ العينين، تقبعُ غمازةً يتيمةً على إحدى وجنتيها.. جذابةُ المظهر، أيُّ فاتنةٍ أنتِ يا جمان..!

قد تستغرب هذا الاسم يا بكيل، لم تكن قد سمعتَ بفتاةٍ معنا بهذا الاسمِ من قبل، حتى انا لمْ أسمع به!.. لكني لمْ أستطعِ الإعجاب بفتاةٍ دونَ أنْ أعرفَ حتى اِسمها، ولَمْ أجرؤ على السؤالِ فأحسدَ بها، قررتُ تسميتها بجمانةٍ تيمناً بروايةٍ قرأتها، من الوهلةِ الأولى التي رأيتها فيها تذكرتُ تلك الرواية، أحداثٌ مشابهة، ظروفٌ مماثلة، أوصافٌ متقاربة، تنافراتٌ وتجاذبات.. بيدَ أني

لم أمتلك شجاعة عزيز، بطل تلك الرواية المتصلة بجمانة، لم أكن شجاعاً مثله.. كنتُ أبادلها النظرات بسريةٍ وبعد، كنتُ جباناً كزيادٍ الذي أحب جمانة قبل عزيز، لكن جُبْنهُ دفعهُ إلى القناعةِ بكتمِ سرهِ حتى أضاعَ جمانته!.. وبرغمِ اِختلافي عن زياد إلا أنني أخشى عزيزاً كذاكَ يخطفُ مني جمانتي!

نعم.. أنا مختلفٌ عن زياد، فزيادٌ كانَ جبان في المصارحة، أما أنا فجبانٌ في الحبِ ذاتِه نِتَاج أسباب خاصه!.. فأنا مؤمنٌ بقداسةِ الحبِ، مؤمنٌ أنا بروعته ومؤمنٌ أنا بجمالكِ يا جمان..!

لكنَّ تعزفي عنِ التعمقِ في الحب له أسبابه، يظنها البعضُ واهيةٌ، وأراها انا عاتيةٌ صارمه، متوطدةٌ فيَّ كالجبال، متجذرةٌ في نفسي تلكَ الأسباب..!

ينظرُ الناسُ للحب بنظرةٍ مختلفةٍ عني، ينظرونَ لهُ من واجهاتٍ مختلفة، إما على أنهُ متعه، أو ضياعُ وقت، أو تلاعب بالطرفِ الآخر؛ وأنظرُ أنا له بقداسةٍ، أنظرُ لهُ كحرمٍ آمن يُحْرمُ دخولهُ غيرُ المؤمنينَ بقداسته، يُحْرمُ دخوله عدا لأداءِ النسك، تلكَ النسكُ المتعلقةُ به!.

أنْا شابٌ عشرينيٌ مختلفٌ عنِ الكثيرِ من أقراني، لا أؤمنُ باللعب، لا أحبذُ فكرةَ أن يتعلقَ شخصٌ بي، أريدُ أنْ أكونَ حراً جامحاً

دونما جرحِ أحد!.. أؤمنُ بأن القلوب درٌ كامنة، وأنَّ تلكَ الدررُ لمْ تخلق لِتُدَنَّسْ، مؤمنٌ أنا بهذا، موقنٌ أنا بلا برمائيةَ القلوب، نعم.. أحياناً أشبهُ تلكَ القلوب بسمكة، سمكةٌ وحيدةٌ والحبُّ بحرها، فإن خرجتْ سمكةُ القلبِ من بحرِ الحب ماتتْ وماتَ لموتها البحر!.. ماتَ معها البحر لأنها ثروتهُ الوحيدةُ وقدْ فقدها...!

ولأني لا أريدُ أنْ تموتَ سمكتي ولا أن يجفَ بحري، لذا تجدني دائماً لا أغامرُ بالغطسِ في بحر كهذا، أخافُ أنْ ينتهي هذا البحرُ فأنتهي بانتهائِه...!

أخافُ كثيراً فأظلُّ على الشاطئِ أراقبُ هذا البحر من بعيد، لا أجرؤُ على الغطسِ فيه،

ولا أستطيعُ الذهابَ عنه، كلُّ ما أفعلهُ هو المشاهدة...!

لا أنكرُ رغبةً عارمةً دائماً ما تَشُدُّني لأن أحب، أتجاهلُ تلك الرغبة، تتغذى تلك الرغبةُ تدريجياً من تجاهلاتي لها، تتضخمُ شيئاً فشيئاً حتى تقتربُ من اللانهاية، أقفُ عندها عاجزاً، تتقاوى عليَّ تلك الرغبة، أستسلمُ لها أحياناً محاولاً الوقوع في الحب، أبحثُ عَمَّنْ تستحقهُ فلا أجدها!.. أقنعُ نفسي من جديدٍ بالعزوفِ عنه، أقوى أنا عليه هذه المرة!.. ولكنْ سرعانَ ما كانت تضعفُ تجاهلاتي لتلكَ الرغبة..!

وفي ذلكَ اليوم كنتُ كعادتي محاولاً تجنب الحب وطرقاته، كانت تتقاوى عليَّ رغبة

الحب فأقهرها.. كنتُ قد عدتُ لطبيعتي المتناقضة ومعاركي الداخليةُ مع رغباتي، كنتُ قد أوشكتُ على التنصلِ من ذلكَ الشعورِ الذي لطالما كَبَتُّهُ لولا رؤيتيَ لها..!

فاتنةٌ هيَ، جذابةٌ، جميلةٌ وساحرةٌ..!

من تلكَ الفتاةُ الجميلة..؟!... وأخيراً وجدتكِ يا جمان..!

كنتُ أتمتم قائلاً:

دقاتُ قلبيَ دندنتْ ودانة

حينِ شافتْ عيونـيَ جمانة

مرت أمامـيَ بزهوٍ لكأنَّ ما

ملأَ الفضاء بضوئـهِ قَمَرَانَـه

جمعتُ قوايَ ثمَّ قلتُ تعجباً

قمرينِ فـي كوكـبٍ، يا لِسُعْدِ سكانـه

قمرٌ فوقـي وقمرٌ مرَّ بجانبـي

سبحانَ خالقَ القمرينِ سبحانـه

لمحتُ فـي ثغرِها طيفُ ابتسامةٍ

طَرِبَ لـها قلبـيَ وتناغمتْ ألحانـه

ما هذا التناقضُ في داخلي!.. كنتُ قد أقنعتُ نفسيَ بالعزوفِ عن الحب، كيف تغيرتْ نفسيتي فجأة..؟!

كيف عادتْ تلك الرغبةُ من جديد، وكيف تقاوتْ عليَّ مرةً أخرى..؟!...بلْ وكيفَ ضعفتُ أنا..؟!

قد تظنونَ بأنَّ الجمالَ يفْتِنُنِيْ وهو كلُّ همي... قد تكونونَ محقينَ بعضَ الشيءِ، فأنا رجلٌ... والرجلُ بطبيعتهِ يفتنهُ الجمال... يغريهِ ويجذبه... بيدَ أني مختلفٌ قليلاً، يجذبني الجمالُ وتفتنني الأخلاق، على غرارِ من يفتنهُ الجمالُ وتجذبهُ الأخلاق... وشتانَ بينهما.

الجمالُ جزءٌ من أولوياتي وليسَ كلها، أولوياتي مرتبةٌ، دينٌ فأخلاقٌ ثم جمالٌ!..

بيدَ أني أحببتُ تلكَ الفتاة من الوهلةِ الأولى!.. تناقضتْ أولوياتي هذه المرة..!

لا أعرفُ عنها سوى جمالها، لا أعرفُ شيئاً عنها، بل لا أعرفُ حتى اِسمها.. ليس حتى الآن.

ربما كانَ جمالُها آسر، ربما تجاوزتْ أولوياتي بجمالها، لكنني لا أستطيعُ الاقترابَ، ليس قبلَ أن أعرفَ عنها الكثير...!

****

في اليومِ التالي، اِستيقظتُ متأخراً كعادتي، ذهبتُ إلى الجامعةِ والملُ يكادُ

يقتُلُنِيْ، دخلتُ قاعةَ المحاضرة، جلستُ على مقعديَ ونظرتُ يمنةً ويسره... رأيتكِ فطارَ قلبيَ فرحاً وتراقصتْ أوتارهُ طرباً على إيقاعاتِ الحب...!

نعم.. كنتُ أكرهُ الجامعةَ قبلكِ يا جمان!.. كنتُ أملُّ منها، كنتُ أعودُ منها كما ذهبتُ، لم يكنْ يستجدُّ عليَّ شيءٌ سوى ذلك الملل المتضاعف، ذلك الملُّ الذي يفتكُ بي، يكادُ يقتلني ذلكَ الملل..! ، لكنْ ليسَ بعدَ أنْ وجدتكِ يا جمان، أصبحتُ الآنَ أناْ من يقتله، نعم.. أصبحتُ أقتلُ ذلك الملل بِك، أقتلهُ باختلاسِ النظرِ إليكِ، بالاستماعِ إليكِ بإنصاتٍ متلذذٍ بصوتكِ!...أعلمُ بأنكِ هادئةٌ تماماً، لكني لَمْ أبالغ حينما ذكرتُ تلذذي

بسماعكِ، فليسَ بالضرورةِ أنْ أسمعكِ فعلاً، ليسَ بالضرورةِ أنْ تسمعكِ أذناي، قلبي هو من يسمعكِ، ولا يحتاجُ قلبي صدورَ صوتكِ لِيَسْمَعُه، قلبي من يخلقُ لكِ الأصوات، هوَ منْ يوهمني بصوتكِ ويجذبني نحو تلك التوهمات الصوتية...!

ظللتُ أراقبكِ من بعيدٍ، تنظرينَ أنتِ فأشيحُ بوجهي، وحينما تشيحينَ بوجهكِ يأتي دوري لأنظر!.. لم أرد أن تقرئي على وجهي ملامح الاهتمام، فكنتُ أسترقُ النظرات في وجل شديدٍ.. نعم، أنا جبانٌ في الحب...!

قررتُ الكتابةَ هذهِ المرة يا جمانُ ليسَ لقتلِ الملل فحسبُ كما كنت، بل لأني أنظرُ إليكِ فأشعرُ بحالةٍ هستيريةٍ غريبةٍ! ، تدفعني

هذهِ الحالة لأن أكتب، فبدأتُ أوقنُ بأنكِ مصدر إلهام..!

لا أدري إن كنتِ أحببتِ الكتابةَ يوماً، لا أدري إن كانَ القلمُ يجذبكِ كما يجذبني، ولا أدري إن كنتِ تعلمينَ أنكِ أصبحتِ مصدر إلهامي!.

في هذه المرحلةِ لم يجذبني سوى شيئين، أنتِ يا جمانةُ ثمَّ قلمي؛ صحيحٌ كانَ قلمي يجذبني قبلكِ، ولكنكِ تغلبتِ عليهِ بحضوركِ، تغلبتِ عليهِ إلى الدرجةِ التي أجبرتني على استخدامِ "ثمَّ" بينكما، على استخدامِ أداةِ الترتيبِ والتعقيبِ لتؤكدَ قوةَ جاذبيتكِ عنه...!

بدأتُ أغارُ منكِ يا جمان، كيف تمكنتِ من قلبي في مدةٍ قصيرةٍ!.. فسألتُ قلبيَ - مستنكراً- عرفتكَ منْ عرفتُ نفسي، فكيفَ تركتني فجأةً وذهبتَ إليها؟! ، سكنتَ في صدري عشرينَ سنة، حفظتكَ خلالها من كل شيء، تناسيتُ كلَّ شيءٍ كيلا أجرحكَ، لم أرد يوماً أن أخدشكَ، فكيفَ خنتَ عشرينَ سنة بنظرةٍ واحدةٍ! ، أبنظرةٍ واحدةٍ تجاهها بعتني فيها..!؟ ، تركتني بنظرةٍ وذهبتَ إليها..! ، تسكنُ في صدريَ وتعيشُ بهيامها..! ، تنبضُ لأجلها، تخفقُ لخفقانها..! ، كم أتمنى لو أخرجكَ من صدري، لو أطردكَ من سكنكَ الذي ترتاحُ فيه وتضنيني، ولنرى من سيهتم بكَ بعدها!..

أجابني قلبي بغرورٍ، تسقطُ الآنَ لومكَ علي...!، تمنُّ عليَّ بما فعلتَ لأجلي متناسياً حرمانكَ إيايَ ما يسعدني...!، حرمتنيَ الحبَّ طيلة أعوام، أبعدتني عن الحب متجاهلاً كل فرصةٍ سنحت لك، متجاهلاً كلَّ من أحبتكَ...!، حارماً إيايَ ما ينعشني...!، سخيفٌ أنتَ، تمنُّ عليَّ بإسكانكَ إيايَ وتتمنى إخراجيَ! أنسيتَ فضلي في حفظِ حياتكَ طيلةَ العشرين...!، أنسيتَ أنهُ لولا ضخي فيكَ الدمُ لسقطتَ منذُ أمد...!، لسقطتَ وسقطَ معكَ سكنكَ اللعينُ ذاكَ...!، أليسَ هذا كافياً كإيجارِ إسكانكَ؟!

- "معكَ حق، غلبتني هذهِ المرةِ، أنا آسفٌ على كلّ ذلكَ، أنا من دفعكَ لكلِ هذا، وأنا من حرمتكَ رغباتكَ مسبقاً.. فلتغفرْ ليَ."

... كان ذلك جوابي الوحيدُ، لم أستطعِ المجادلةَ أكثر، كانَ قلبي محقاً في كلّ ما قاله.

رقَّ قلبي لحالي هذه المرة، غفرَ لي وأعطاني فرصة ثانية، كيفَ لا وأنا الذي لطالما أعطيتُ الفرص...!، وها هو قلبي يدينني كما أدنتُ، قالَ لي راثياً: "غفرتُ لكَ بشروطي، فدعنا نتحد هذهِ المرة ونعوض ما فات، دعنا نأخذُ جمانةَ سوياً".

إنْ رفضتُ العرضَ خسرتكِ وقلبيَ يا جمان، أيُّ موقفٍ صعبٍ أنا فيه..؟!

- حسناً.. أنا موافق...

وافقتُ بعد أن أغلقتْ بوجهي كلُّ السبل، لم أستطعِ الرفض، فوافقتُ على مضض...!

لستُ أكرهكِ يا جمان، ليس لي أية عداوة معكِ كي أقصيكِ من حياتي!.. فقط.. خفتُ أن أجرحكِ فخشيتُ الاقتراب، وخشيتُ أن أخسركِ وقلبي فخفتُ الابتعاد...!

تناقضاتي تلك أتعبتني، أضنتني وأهلكتني، فوافقتُ على الحب بشروطي، وافقتُ عليهِ دونما مصارحة، فأقنعتُ قلبي بالصبر، وأيقنتهُ بأنَّ عقبى الصبر خير.

اختلستُ نظرةً تجاهكِ يا جمان، لم تكن كسابقاتها...!، كانت نظرةُ غيرةٍ هذه المرة، نعم.. غرتُ هذه المرة منكِ يا جمان، كيف أخذتِ قلبي بنظرةٍ واحده..؟!، عاودتُ النظر إليكِ وأنا غارقٌ في تفكير عميق، كان تفكيري خوفاً، خوفُ الفقدِ والبعدِ والخسران، خوفُ ال.....

قاطعني قلبي بصوتهِ المبحوحِ هذه المرة، قال لي: "تعقل ولا تضنيني بتفكيراتك السخيفةِ تلك، كيف تخشى البعد وأنتَ لم تقترب حتى الآن...!، لمَ أنتَ متشائمٌ لهذا الحد؟!

- لم أنا متشائمٌ إلى هذا الحد! عجيب أمركَ أيها القلب! كيف تسألني سؤال كهذا وفي

برودٍ تام!؟، أحقاً أنكَ لا تعلمُ ذلك ولم تفكر فيه...!، أم أنكَ مستهترٌ إلى هذا الحد!، أنتَ تعلمُ بأني لطالما تجنبتُ الحب وطرقاته...!، أنتَ تعلمُ كم مرة أضعتُ فيها الفرص السانحة وبقناعةٍ تامة...!، أنتَ تعلمُ مبادئي.. تعلمُ قواعدي في الحياة... تعلمُ لِمَ أنا متشائمٌ كحدّ قولك...!، فلِمَ هذا السؤال..؟!

أتظنُّ أني نسيتُ مبادئي... قواعدي... استراتيجياتي في الحياة...!، أمْ انكَ تظنُّ بأني نسيتُ نصائح والدتي...!

والدتي التي لطالما أفنتْ نفسها لنزدهر نحن!.. لطالما جعلتْ سعادتنا من أولوياتها ولو على حسابِ سعادتها!.. لطالما أحرقت

أناملها كشموع لتضيء حياتنا!... ولطالما كانت نصائحها مصدر إلهاماتي، فكيفَ تظنني أنسى تلكَ المبادئُ التي أفنيَ في سبيلِ غرسها عمرٌ بأكمله...! أتظنني أنساها وقيمها المتجذرةُ في نفسي...!، قسماً لو جعلت في كفةٍ والدنيا في كفةٍ أخرى لاخترت كفتها دونَ تردد...!

لطالما نصحتني أمي بالبعدِ عن كلّ ما يفسد.. عن الرفقةِ السيئةِ... عن العاداتِ السيئةِ كالتدخينِ وأشباههِ.. عن الكثيرِ من الأشياءِ الضارةِ.. وعن الفتياتِ بشدةٍ، نعم.. كانت أكثرُ تعقيباتها عنهنَ .. عن تلاعبِ الرجالِ بهنَّ وتلاعبهنَّ بهم.. عن فتياتِ المدنِ خاصة.!

لازلتُ أذكرُ ذلك اليوم الذي بدأتُ فيه تحضيرات السفر، بدأتُ الاستعداد للانتقال إلى مرحلةٍ جديده.. مرحلةٍ بعيدةٍ عن قريتي الصغيرةِ التي نشأتُ وترعرعتُ فيها، عن أهلي الذينَ لم أفارقهم منذُ نعومة أظفاري!.. عن أصدقاءِ طفولتي.. عن كل شيءٍ جميل في تلكَ القرية.. عن جبالها.. وديانها.. عن جمالِ الحياةِ فيها بشكلٍ عام!، أذكرُ كيف أتتني أمي وأنا أكادُ أنهي استعداداتي، أتتني والقلقُ بادٍ عليها قائلةً لي: "ماجد... إنك الآن على وشكِ الانتقالِ لحياةٍ جديدة، حياةٌ بعيدةٌ عنا، حياةٌ مختلفةٌ عن حياتنا، عن مبادئنا، عن قيمنا وعاداتنا، وعن تحفظنا بشكل عام...!، فلتعلم... مرحلتكَ القادمةُ مختلفةٌ كثيراً، باختصارٍ...

فيها الحرية في بيئةٍ منفتحةٍ!.. فيها كلُّ أشكال الفساد... فيها تلاعب الشباب والفتيات ببعضهم البعض بسهولةٍ وفي ظلِّ رقابةٍ أسريةٍ تكادُ تنعدم؛ الآن ستصبحُ أنتَ سيدُ نفسكَ ومسؤولاً عنها، فإياكَ أن تجعلني وأباكَ نحني رؤوسنا ونعضُّ الأناملَ على تربيتنا..!"

كانت نصيحةُ أمي موجزةً هذه المرة، كانت مختصرةٌ كثيراً..!

لم تكن طويلةٌ كسابقاتها أو كنصائحِ الأمهاتِ المعتادة!.. لا أدري لِمَ ذلك، ربما لأنها لطالما نصحتني بهكذا أمور فلم تردِ الإطالةَ هذه المرة..، أو ربما أرادت أن توجزها بكلماتٍ قلائلٍ ليسهلَ عليَّ حفظها

وعلى عقلي استحضارها كلما أستدعى الموقفُ ذلك..!

لا أدري لِمَ اختصرتها يا أمي!.. لا أدري لِمَ اختصرتِ كلَّ الفسادِ بجملةٍ واحدةٍ ثمَّ استطردتِ لتلاعبِ الفتياتِ والشبابِ بجملةٍ أخرى، لا أدري لِمَ خصصتِ جملةً كاملةً لذلك برغمِ الاختصارِ المتطرقِ له!، لكني أعلمُ يقيناً بأنَّ نصيحتكِ لن أنِساها.. وبأنكِ يا أمي قد حققتِ مرادكِ بذلكَ التطرقِ أيٍ كان...!

أيقنتُ أنَّ ما أنا عليهِ الآنَ من جُبن وقلةِ حيلةٍ أمامكِ يا جمانُ ليس إلا نِتاجُ تلك القيمِ المتجذرةُ في نفسي، تلك القيمُ

المستعصي عليَّ تغييرها أو حتى تجاهلها...!

رفيعةٌ تلكَ القيمُ كالسماء!.. راسخةٌ تلك القيمُ كالجبال!.. جاريةٌ فيَّ تلك القيمُ كالدماء!.. متأصلةٌ تلك القيمُ كروحيَ ولن تخرجَ إلا معها...!

فبأيّ ذنبٍ أخسرُكِ يا جمان...!

قررتُ الابتعادَ يا جمان، ليسَ كرهاً لكِ أو شيءٌ من ذاكَ القبيل!.. ليسَ سوى تناقض داخلي وعدمُ اتزان...!

فلتعلمِ بأني أحببتكِ كما لم أفعل لأحدٍ قبلكِ سوى عائلتي!.. أحببتكِ كعائلتي يا جمانُ، ولا أرضى لعائلتي أن يتلاعبَ بها

شخصٌ ما تحتَ مسمى الحب أو أيٍ كان، لا أرضى إلا أن يُطرقَ بابُ عائلتي لا النافذة..!

سأبتعدُ يا جمانُ وكليَ حزناً على فِراقكِ، سأبتعدُ وجراحُ الوِجدُ تحطمُ قلبي الضعيف، سأبتعدُ ليسَ عنكِ فقط.. بل عن الكتابةِ أيضاً...!؛ نعم... تطرقتُ مسبقاً بأنكِ أصبحتِ مصدرَ إلهاميَ لأكتبَ.. أصبحتِ فِكري الذي يستمدُّ قلميَ الوحيَ منه..!، أما أنا فلم أعد أمتلكُ سوى يدي التي تنفذُ أوامر وحيكِ يا جمانُ... فكيف لي أن أكتبَ بعدكِ..!

قررتُ التوقفَ عند هذا الحد.. عنكِ وعن قلمي!، فوداعاً لكما.

****

في اليومِ التالي

؟؟

****

بعد أسبوع

؟؟

****

أسبوعين

؟؟

****

بعدَ ثلاثة أسابيع فقط لم أستطعِ الصمود أكثر يا جمانُ فعدتُ من حيثُ توقفت.

مرت أسابيعُ الانقطاعِ الثلاثةِ تلكَ عليَّ كسنواتٍ!.. مرت كدهر بأكمله!.. مرت والشوقُ يعتصرُ قلبي والفكرُ يتكدسُ برأسي!.. لم أستطع خلالها شَغلُ فراغِ قلبيَ بسوى فقدكِ.. ولا نزعُ تكدسِ فكريَ بالكتابةِ كما كنت..!

لا أدري يا جمانُ كيف أحكمتِ السيطرةَ على قلبيَ هكذا!.. لا أدري كيف اقتلعتِ حصونَ قلبي المنيعة بنظرةٍ!.. لا أدري كيف بنظرةٍ واحدةٍ صارت حصونيَ هباءً منثوراً دونَ أدنى مقاومةٍ!.. وما يؤلمني أكثرُ هو

محاولتها المقاومة بعد سقوطها واحتلالكِ التام لقلبي..!

عقلي، إرادتي، عاداتي، مبادئي وقيمي... كلٌّ تلك الحصون سقطت بلحظةٍ.. بل بجزءٍ من الثانية، وها هي الآنَ تحاولُ -دونَ جدوى- أن تثورَ لتخرج احتلالكِ لقلبي... وفي النهايةِ أنا الوحيدُ المتهشمُ من كلّ ذلك...!

خلالَ تلك الأسابيعُ الثلاثة.. حاولتُ الابتعاد كثيراً.. حاولتُ نسيانكِ دونما جدوى.. كنتُ قابَ قوسينِ أو أدنى من الانغماسِ في حبكِ مجدداً في كلّ ليلةٍ كانت تَمُرُّ عَليَّ.. بيدَ أني كنتُ أحاولُ الصمودَ باتخاذِ سبل أيقنتُ مؤخراً أنها كانت واهية.. كانت

مترهلةٌ تلكَ السبلِ، كانت أضعفُ من أن تنسينيكِ يا جمانُ..!

حاولتُ خلال تلك الأسابيع نسيانكِ بالنومِ هرباً من كآبةِ الواقعِ، لم تكن هذه الطريقةُ مجديةٌ يا جمانُ...كنتُ كلما أغمضتُ عينايَ تخيلتكِ تظهرينَ بشكلٍ باهتٍ... تقتربينَ نحوي ببطءٍ شديدٍ... تقتربينَ حدَّ التلامسِ... تتحدثينَ إليَّ بتمتماتٍ لا تكادُ تفهمُ... لا أعقلُ شيئاً من تلك التمتماتِ عدا عبارةٍ واحده... تلك العبارةُ حادةٌ جداً!... "إنتشلْ قلبي من هذا الحضيضِ"... كانت تلك عبارتكِ التي أتخيلها كلما أغمضتُ عينايَ يا جمانُ!... وقعتْ تلك العبارةُ كسهمٍ حطَّ رحالهُ في قلبي... اخترقتْ تلك

العبارةُ قلبي كما السهم... كادت دقاتهُ أن تتوقف بيدَ أنَّ الحدثَ لا يسمحُ لها بذلك... فجأةً، تتسارعُ تلك الدقات حتى كادتْ تحطمُ قلبي... كانت وكأن عينايَ - المغمضتانِ- محدقتانِ نحو طيفكِ وهو يبتعدُ عني بسرعةٍ على عكسِ مجيئهِ حتى يختفي تماماً!.. أفتحُ عينايَ فزعاً من تلك التخيلات... بتُّ أخافُ من إغماضِ عينيَّ كثيراً... ظللتُ هكذا وأنا أدعو اللّهَ أَلا تتحققَ تلك التخيلات.

قررتُ قراءة الكتب المختلفة لأتسلى عن فقدكِ ولينسى قلبي حبكِ؛ لم تكن هذه الطريقةُ مجديةٌ أيضاً يا جمانُ!.. كنتُ كلما قرأتُ روايةً أو كتاباً أتذكركِ لكأنَ اسمكِ

يتخللُ أسطر ذلك الكتاب أو الرواية... كنتُ كلما مررتُ بعبارةِ حب أو فراق تتسارعُ نبضاتُ قلبي ويخيلُ ليَ عقلي بأنني المنشود!.. أنهكتني تلك الروايات كثيراً فتوقفتُ وقررتُ التغيير... حاولتُ التهرب من عزلتي بالخروج في نزهاتٍ عديده؛ لم تكن مجديةٌ هذه أيضاً!.. كنتُ كلما خرجتُ بنزهةٍ يتراءى لي طيفكِ من بعيد... كان يظهر ذلك الطيف كلما ذهبتُ بنزهةٍ محاولاً الخروج من كآبتي تلك ومحاولاً إخراجكِ من قلبي... كان يظهر طيفكِ يا جمانُ فيزدادُ تعلق قلبي بكِ وتزداد معه تعاستي!.

لكنه ظلَّ مجردُ طيفٍ حتى أتى ذلك اليومُ السعيدُ التعيسُ في ذاتِ الوقت!...

ففي أحدِ الأيام، وبعد ثلاثة أسابيع من المحاولات الفاشلة... كانت هناك نزهةٌ إلى أحدِ المعالمِ الأثريةِ في اليمن. طربتُ لسماعِ هذا الخبر... توهمتُ بأنها فرصتي لاستعادةِ قلبي وعقلي!..، كيف لا تكون فرصةً وأنا ذاهبٌ إلى معلمٍ أثريٍ يُذَكّرُ بماضٍ إمامي بهيمٍ... كيف لا وذلك الكبتُ الإماميُّ ككبتكِ لقلبيَ يا جمانةُ!... ليس هذا ما يهم، فالمهمُّ أن ذاكَ الشعبُ المكبوتِ قد انتصرَ على ذلك الظالمِ وحررَ وطنه... وقد أتى دوري لأنهج سبيلهُ وأحررُ قلبي؛ بيدَ أني لم أكن أعلمُ أنَّ تلك الرحلة ستكونُ قيداً حديدياً يكبلُ قلبي للأبدِ بعد أن كان مكبلاً بمجردِ نظرةٍ..!

ذهبتُ في تلك الرحلةِ مع زملائي، وصلنا مكاننا المنشود، كنتُ أتحدثُ مع أصدقائي عن تاريخِ هذا المعلمِ الأثريِ بسعادةٍ، وفجأةً تجمدتْ أطرافي.. وثقلَ لساني.. وتسارعتْ دقاتُ قلبي.. فخيمَ الصمتُ عليَّ وكانَ نظريَ شاهقٌ نحو فتاتي...

لم يكن هذه المرةُ طيفكِ يا جمانةُ.. كنتِ أنتِ..!

أيعقلُ أنَّ القدرَ خططَ لكل هذا.. أيعقلُ أنها إرادةُ القدرِ لجمعنا هذه المرة!.

سمعتُ أحد الزملاء منادياً إيانا بالتجمع... تجمعنا فبدأَ مخطِطُ الرحلةَ بالحديثِ عن ملاحظاتٍ لم أعقل منها شيئا!... نعم.. فقد

كان نظري وتركيزي وكل جوارحي منصبةٌ نحوكِ يا جمانُ..!

فجأةً.. تواجهتْ عينانا يا جمانُ.. فتلاعبتُ بنظري يمنةً ويسرةً مدعياً بأنَّ الحدثَ كان مجردُ صدفة.. لأوهمكِ بذلك التلاعب أني لم أكن أنظرُ نحوكِ حينما لاحظتني..!

آهٍ.. كم كانت نظرتكِ تلكَ ظالمةً يا جمانُ.. كانت أشبهُ بصعقةِ برقٍ أحرقتنيَ بالكامل..!

كان هذا اليوم سعيداً لقلبي وتعيساً لي..!

بينما كان عقلي يتساءلُ عن اسمكِ يا جمانُ إذْ بي أسمعُ إحدى صديقاتكِ تناديكِ باسمكِ.. ذهلتُ من مفاجآتِ القدرِ هذه المرة.. أصبحَ القدرُ يحققُ مآربي واحدةً تلوَ

الأخرى.. أصبحَ يمهدُ لي طريقي وكأنه يريدني أن أصلَ إليكِ يا راغدة..!

نعم.. عرفتُ بأن اسمَ جمانتي راغدة، وقد آنَ لي معرفتكِ أكثر يا جمانُة.. أو يا راغدة...

احترتُ كثيراً أيُّ اسمٍ لكِ هو الأحبُّ إلى قلبي، أهو اسمكِ الذي أختارهُ لكِ والديكِ "راغدة"، أم هو اسمكِ الذي أختارهُ لكِ قلبيَ "جمانة"

وصلتُ إلى حل وسطي -منحاز بعضَ الشيءِ- رأيتهُ الأنسبَ لقلبي، كان الحلُّ هو التذبذبِ بين هذا وذاك.. فتارة أسميكِ بما أسماكِ قلبي "جمانةٌ" في مواقفِ الفرح والاعتزاز بكِ والقرب منكِ...وأخرى أسميكِ

بما أسماكِ والديكِ "راغدة" في مواقفِ الحزنِ والبعدِ والخذلانِ..!

****

بعدَ العودة من تلك الرحلة، كان صدى صوتكِ لا زالَ يطرقُ سمعي.. وابتسامتكِ لا زالت نُصبَ عيناي.. لم تكن هذه المرة توهماتٌ طيفيةٌ كما كانت من قبل.. بل كانت بدايةُ الحقيقةِ يا جمانُ..!

فتحتُ هاتفي وبدأتُ البحث عن فتاةٍ باسمكِ يا جمانُ، وأخيراً.. حصلتُ على الاسمِ كاملاً، فتحتُ برامج التواصل وبدأتُ البحث عن ذلك الاسم... وجدتُ اسمكِ هذه المرة أيضا، فلقد كان القدر في صفي

هذه المرة، تصفحتُ ملفكِ فوجدتُ الكثير من الأشياء التي أبهرتني..!

عرفتُ تاريخ ميلادكِ قبلَ كل شيء.. ثمَّ مدينة نشأتكِ والتي كانت مدينتي ذاتها، دقتْ أوردةُ قلبي وتراقصتْ فرحاً لهذا الخطبِ يا جمانُ، واصلتُ التصفح... وجدتُ شيئاً أذهلني هذه المرة.. كانت صورتكِ يا راغدة!.. كانت منشورةٌ بواسطةِ إحدى أخواتكِ في تاريخِ ميلادكِ السابق، تعجبتُ كيف لهذا الانفتاح أن يوجد في عائلتكِ يا راغدة..!

بدأتُ أفكرُ في كيفيةِ الوصولِ إليكِ يا جمانُ.. لم أُردِ الدخول معكِ بطريقةٍ مباشرةٍ، فقررتُ اللامباشرة..!

ظللتُ بضع وعشرونَ دقيقة وأنا أفكر كيف أصلُ إليكِ يا جمانُ، ولكأن لسانُ حالي يثرثرُ خلال تلك الدقائقِ بأولِ بيتٍ في تلك القصيدةِ الشهيرةِ لسعيدٍ البوسعيدي "يامن هواهُ أعزهُ وأذلني... كيفَ السبيلُ إلى وصالكَ دلني"

ظللتُ محتاراً كثيراً وأنا أفكر في كيفية الوصول إليكِ، وبعد لحظاتٍ استحضرَ عقليَ فكرة ماكرة، كان محور تلك الفكرة أن أصل إليكِ بطريقةٍ غير مباشرة ، كنتُ اعلم أني لن أتمكن من الحصول عليكِ بسهولة، فأنتِ لا تعلمين من أنا حتى الآن!.. فكيفَ آملُ الحصول عليكِ بسهوله...!

دقت ساعةُ الصفر، بدأتُ بتطبيقِ خطتي التي كان هدفها الوصول إليكِ عن طريق عائلتكِ، بدأتُ البحث والتصفح في صفحاتهم الشخصية، أرسلتُ الكثير من طلباتِ الصداقة، طلبتُ الصداقة من أخواتكِ... والدتكِ... بل حتى صديقاتكِ وكل من له علاقةٌ بكِ، أردتُ إحاطتكِ من جميعِ الجهات، أرسلتُ الكثير الكثير من الصداقاتِ بيدَ أنكِ كنتِ المنشودة الوحيدة يا جمان، كانت تلك مجردُ وسيلة لتحقيق غايتي المنشودة، كنتِ أنتِ غايتي.

بعد الانتهاء من تلك الطلبات، ظللتُ مترقباً بصمتٍ وأصابع يدي تتأرجح بين إشعار وآخر، كنتُ أتجمدُ كلما سمعتُ صوتَ هاتفي

منذراً بإشعار، كان صوتُ دقات قلبي يسبق صوت ذلك الإشعار، وأصابعُ يدي تصلُ مترنحةً لفتحه، فكانت تتحطمُ كلَّ آمالي حينما أراهُ لا يمتُّ لكِ بصله، ظللتُ يومين على تلكَ الحالة، ظللتُ ليلتايَ تلك ما بين انتهاءِ رصيدٍ وتجديده، أصيبَ هاتفي بنوعٍ من التعليقِ والسخونة لشدة ما أسرفتُ في استخدامه، ليس هاتفي فحسب، فأنا أيضا أصبتُ بالأرقِ الشديدِ حتى كادَ السهادُ يفتكُ بِمُقْلَتَي، كنتُ أغمضُ عينايَ فأراكِ، أفتحهما فأرى طيفكِ.. آهٍ كم كنتِ ظالمةً يا جمانُ!.. أنتِ وعائلتكِ.

بتُّ تلك الليلتينِ حيرانَ أفكرُ كيف استصعبتْ عائلتكِ مجرد لمسة إصبعٍ للموافقةِ على طلبي!.. مجردُ لمسة زرٍ كانت كفيلةٌ بإعادتي للحياة!.. كانت تلك اللمسة كفيلةً بأن تتحدى الغرب وتكنولوجيته!.. تلك التكنولوجيا التي جعلها الغربيُّ بمجردِ لمسةِ زر يتم التحكم في كل شيء.. في ابوابِ المنازل.. في شاشاتِ التلفاز.. في السيارات.. في البيوت.. في الكثيرِ والكثير؛ عدا أن الغربيُّ لم يستطع فتح أبواب قلبي كما كانت عائلتكِ ستفعلُ بتلكَ اللمسةُ الكفيلةُ بإحياءِ روحي!.. وليتَ عائلتكِ فعلتْ يا راغدة!.

في اليومِ الثالثِ أغلقتُ هاتفي وأنا أرى بؤس الواقع، كنتُ متحطماً جداً بعد أن فقدتُ أملي في الوصولِ إليكِ... قد لا تصدقينَ مدى البؤس الذي شعرتُ به حين لم أجد أدنى استجابة من عائلتكِ... لكنها الحقيقةُ يا جمانُ...!

خرجتُ من البيتِ كئيباً أقطعُ الطرقات بعشوائيةٍ دون وجهةٍ مسبقة، أسيرُ كسفينةٍ قديمةٍ مهترئةٍ تتقاذفها الأمواج لا يدري ربانها أين مستقرها، وبينما كنتُ أهيمُ على وجهي في تلك الشوارع، إلتقيتُ بشادي، أحد أصدقاءِ طفولتي، لكأنَّ الله قد أرسلهُ لمواساتي!

سلمَ عَليَّ شادي ثم مشى بجانبيَ دون أن يسألني حتى عن الوجهة!.. لعلهُ لَحِظَ حالتي فلم يستحسنِ السؤال! فجأةً؛ اقتربَ مني بهدوءٍ وربتَ على كتفي مذكراً إياىَ بأيامِ الطفولةِ وما مرت علينا من مواقف.. عن مشاكلِ الاطفالِ التي أحدثناها.. عن خدعهمُ التي مارسناها.. عن أعاجيبِ الطفولةِ التي عايشناها بشكل عام.

" نعم.. ما أجملَ الطفولة وأيامها!.. وما أصفى قلوبُ الاطفال!" ... كان ذلك ردي الوحيد على كلماتهِ المتحمسة عن الطفولة!.. صمتَ شادي لبرهةٍ والدهشةُ باديةٌ على وجهه، كان مستغرباً من

كلماتي الباردةُ هذهِ المرةُ... كيفَ لا وانا الذي لطالما تحمستُ لتلك الذكريات!.. بل كنتُ انا من يبدأُ بتذكرها دوما، وها قد فقد ذلك الحماسُ بريقهُ هذه المرة! لعلَ شادي كان قد فهمَ ما يختلجُ في صدري، ابتسمَ بمكرٍ محاولاً إخفاء دهشتهِ السابقة، سدد لكمة على كتفي بخبثٍ ثم بدأ مقدماتهِ المعتادة -عندما يرغبُ باكتشافِ شيءٍ ما- بعد أن رفعَ أحد حاجبيهِ بدهاءٍ وعظَّ شفتهُ بخبثٍ قائلاً: " ماجد... أتذكرُ مواقفكَ والبنات في أيامِ المدرسة؟.. تجنبكَ للحديثِ معهن؟.. تهربكَ منهن؟.. انتقاداتكَ اللاذعةُ لانفتاحِ بعضهن؟.. أتذكرُ حديثَ منالٍ عنك ومدى تكبركَ وتبجحكَ لامتناعكَ الكلامِ معها؟!.. كم كنَّ يرينكَ متكبراً يا ماجد! " ...

" وكيفَ تراني أنت؟!" ... كانت تلك جملتي التي قاطعتُ بها شادي.. عرفتُ مبتغاهُ من تلك المقدماتِ التي لطالما عهدتها منه، فأحببتُ استئصالَ الموضوعِ من جِذوره وتغييرِ مجرياتهِ لننتقلَ إلى موضوع آخر... لكن شادي كان فطناً جداً كما عهدته، عرفَ مراديَ من ذلك السؤالِ فأجابني بدهاء: " وهل أنا إحداهنَّ..!؟، أنا صديقكَ واعرفك".. ثم أردفَ شادي - محاولاً منعي من التهربِ هذه المرةِ - قائلاً: " لعلكَ غيرتَ ذلك الأسلوب!.. لعلكَ الآن فارسٌ في ميادينهن؟!".. ثم اتبعَ جملتهُ الأخيرة بضحكتهِ المفتعلة الأزلية.. لم يكن يستطيعُ افتعالَ الضحكِ جيداً منذ طفولته، يصبحُ لضحكتهِ صدىً عجيباً حينما يفتعلها، كنا

نطلقُ عليهِ صاحبَ الضحكةِ الشريرة!.. كنا أطفالاً جُلَّ ما نعرفهُ هي قصص الأطفال المسلية، فكنا نطلقُ على كل ما يصادفنا تشبيهاً لأحدِ شخصياتِ أو أحداثِ تلك القصص!.. ولقد كانت ضحكتهُ أشبه بضحكاتِ الأشرارِ في تلك القصص!.

ابتسمتُ متعجباً من ضحكتهِ المفتعلةِ التي لم تتغير!.. ثمَّ أجبتهُ: " لازلتُ مغروراً في أنظارهنَّ يا صاحب الضحكةِ الشريرةِ." ... تجاهلَ شادي كلَّ المواضيع مستغلاً ابتسامتي تلك، قائلاً:" إذاً.. فَلِمَ هذا الثقلُ في قلبكَ يا صديقي؟!.. أينَ صديقُ طفولتيَ الذي عهدتهُ ضاحكاً؟!.. أظهِرْ شخصكَ القديمِ لتقنعني بكلامكَ!".

حاولتُ التنصلَ من ذلك الموقفِ دونما جدوى، أجبتهُ بعد فشل ذريع:" أنا آسفٌ.. ربما الزمنُ كفيلٌ بإعادةِ صديقكَ القديم." ...عقدَ حاجبيهِ هذه المرة غاضباً وقال:" إذاً... فلقد اصبحتَ ضحية الحب." فاجأتني نظراتُ الغضبِ التي رمقني بها هذه المرة فأجبتهُ باندهاشٍ:" ولمَ هذا الشررُ المتطاير من عينيكَ غضباً وحنقاً!." ... ردَّ عليَّ بنبرةٍ شديدةٍ " وكيف لا تريدني أن أغضبَ وأخي على حافةِ الضياعِ من أجلِ فتاه!.. كيفَ لا أغضبُ وأنتَ بهذهِ الحالة!.. كيف لا أغضبُ وأنا ارى عينيكَ الغائرتينِ واشعرُ بقلبكَ الباهتِ!.. كيف لا وقد أضعتَ صديقي البشوش بحبكَ الاعمى!.. شخصكَ القديم ذاك كان صديقي الوحيد!" .

اغرورقتْ عينايَ وظللتُ كليلَ اللسان، وصوتٌ يهمسُ من اعماقي " آهٍ يا صديقي، لقد وضعتَ يدكَ المملؤة بالملحِ على جرحي النازف اللعين "، نظرَ في عينايَ بعد أن عرفَ أيُّ موقفٍ صعبٍ انا فيهِ، ثم ربتَ على كتفي بيدٍ اشبهُ ما كانتْ بيدِ الأم حين تربتُ على كتفِ ولدها مطَمئنةً له، أخذني إلى مقاعدِ الاستراحةِ القابعةِ على إحدى حافتيّ الطريقِ ثم ابتسم لي قائلاً :" لا عليك.. كلُّ شيءٍ على ما يرام، حدثني بما حصل؟" ... وجدتُ نفسي حينها كطفل صغير فتحتْ له والدته ذراعيها بعد أن رأته حزيناً قائلة له: "ما بالُ صغيري الجميل؟!".. فلم يجد ذلكَ الصغير بداً من أن يفرغَ كل همومهِ التي أثقلتْ كاهله، فظلَّ يتحدثُ

ويتحدث حتى غلبه النعاسُ فنام..!، لكم كنتُ اشْبه بذلك الطفل، فلقد افرغتُ جلَّ مشاعري لصديقي... أريتهُ مدى الخيبة التي وصلتُ إليها ومدى الانهيارِ الذي أصابَ صديقةُ القديم فأبهتَ بريقه.. "هل أستحقُ كل هذا يا صديقي؟!"

- " لا عليكَ.. أنت أقوى من أن تنهار، وستجتازُ هذا الموقفِ كما اجتزتَ كلَّ مواقفكَ الصعبة".. كانت تلك كلماتُ صديقي محاولاً بها مواساتي ليس إلا.

أجبتهُ بتحطمٍ" كلُّ مواقفي السابقةُ كان يواجِهُهَا عقلي فقط.. لم تكن تمتُّ لقلبي بصلةٍ!..، أما الآن فالوضعُ مختلفٌ تماماً.. قلبي فقط في المواجهة."

طمئنني صديقي محاولاً إخراجي من تلك الحالةِ البائسةِ دونما جدوى.. افتعلتُ الابتسامةَ لأوهمهُ أني على ما يرام، وأنه قد نجحَ في إخراجيَ من بؤسي.. أظهرتُ لهُ عكسَ ما بداخلي من الحزنِ تماماً.. أظهرتُ لهُ البرودَ وداخلي يحترق!.. أظهرتُ لهُ القناعةَ وقلبيَ حيران في وهمه!.. ببساطةٍ، أظهرتُ له التضاد وأخفيتُ المرادفَ!

بدأتْ السعادةُ ترتسمُ على مُحَيَّاْ صديقي وهو واهمٌ بأنهُ استطاعَ انتشالي من حزني!.. أوصلني إلى مطعمٍ بالقربِ من سكني الذي أقطنُ فيه، تناولنا العشاء

سوياً ثم ودعتهُ وعدتُّ لمنزلي بعد أن أوصى كلانا صاحبهُ بخيرٍ.

عدتُّ لكن ليس لوحدي، عدتُّ مع كلِّ تلك الهموم التي أثقلت كاهلي.

كنتُ كئيباً جداً لدرجةٍ فظيعةٍ.. فتحتُ هاتفيَ لأتصلَ بوالدتي.. فكرتُ في الارتماءِ بحضنها كعادتي كلما ألمتْ بي ضائقة.. كنتُ أجتاز تلكَ المواقف بسماعِ صوتِ والدتي.. بسماعِ دعائها الذي لا ينقطعُ لأجلي. اتصلتُ بوالدتي.. فتحتْ والدتي الهاتف لتسمعَ "كيفَ حالكِ يا أمي؟!"..

من نبرةِ صوتي تلك عرفتْ أمي حالتي فتجاهلتْ سؤاليَ لتجيبَ -بعد أن اعتراها

القلقُ- بسؤالها " ما بالكَ يا ماجد؟.. هل أنتَ مريض؟.. طمني عليك يابني!"

- "أنا بخيرٍ، لِمَ هذا السؤال؟"

- " صوتكَ يدلُّ على أنَّ هناكَ خطبٌ ما يا ماجد!.. لِمَ تخفِ عني ذلك؟!"

- " لا شيءَ يا أمي.. فقط صحيتُ من نومي قبلَ قليل"

- " لِمَ نمتَ في هذا الوقت؟.. ليس من عادتكَ ذلك!.. أقسمُ بأنكَ مريضٌ."

- " كنتُ مرهقاً من آثارِ المذاكرةِ يا أمي، فأخذتُ قيلولةً صغيرة."

- " ماجد؛ أنشدتكَ الله ثمَّ بحقي عليكَ أخبرني الحقيقة؟"

- " أرجوكِ يا أمي، أنا فقط منهارٌ إلى أبعدِ الحدودِ... لستُ مريضاً بل أنا منهكٌ فقط!.. لكن ثقي بأنَّ دعائكِ سينتشلني من الحضيضِ الذي أنا فيه."

بدأتْ أمي تدعو لي بدعواتٍ كانت أحبُّ لقلبي من كلّ شيءٍ يا جمان.. ارتحتُ لسماعِ صوتها -وهي تدعو لي- كثيراً... كانتْ دعواتها تلك برداً وسلاماً على مشاعري.. أطفأتْ تلك الدعواتُ لهيبَ قلبي كما يفعلُ الماءُ مع الجمر!.. ولكم كنتُ محتاج لمثلِ ذلك!.

نعم... أنا كطفل مدلل كلما أتعستهُ الحياةُ ارتمى في حضنِ أمه، كيف لا والوالدينِ هما

سندُ الإنسان في حياتهِ، ولولا والديَّ لسقطتُّ منذ أمدٍ يا جمانُ!.

ظلتْ أمي تدعو وتدعو؛ حفظكِ الله يا أمي.. رصيدي على وشكِ النفاذِ.. سأتصلُ بكِ في أقربِ فرصة. أنهتْ أمي الكلام بقولها "استودعتكَ الله يا بني."..

عرفتُ حينها أنَّ الله لن يضيعَ من استودعتهُ أمهُ عنده.." حفظكِ الله يا أمي وأدامكِ تاجاً في رأسي يا جنتي."؛... أنهيتُ المكالمة بتلك الكلمات.

فتحتُ الإنترنت وبدأتُ بتصفحِ هاتفي.. بدأتِ الإشعاراتُ تتوافد.. كان أهمُّ تلك الإشعارات " لقد تم قبولُ طلبكَ".. أدركتُ حينها كم كنتُ مستعجلاً ذو قلةِ صبر؛ ليس هذا ما

يهم.. فالمهمُّ الآن هو أنَّ خطتي التي بدأتها قبل ثلاثةِ أيامٍ قد نجحتْ أخيراً.. أيقنتُ بأني صرتُ قريباً جداً منكِ يا جمان.. كانت خطوتي التاليةُ اجتذابُ عائلتكِ نحو منشوراتي تدريجياً.. بدأتُ بتصفحِ بياناتهم لأعرفَ ما يلفتُ انتباههم وفيما اهتماماتهم.. لفتَ انتباهي منشوراً لإحدى أخواتكِ يا جمان.. كان هذا المنشورُ مصاغٌ بطريقةٍ أدبيةٍ نثريةٍ جميلةٍ.. أبهرني ذلك المنشورُ حقاً يا جمان!.. كنتُ قد تسألتُ من قبل إن كان القلم يجذبكِ كما يجذبني.. إن كانت الكتابة طريقكِ كإيايَ للهروبِ من بؤسِ الواقع... وها أنا ذا أعتقدُ قد حصلتُ على إجاباتٍ لتساؤلاتي تلك يا جمان. اكتشفتُ أنَّ الكتابةَ إحدى هوايات عائلتكِ..

عرفتُ أنها ملازمة لعائلتكِ يا جمان.. جزءٌ لا يتجزأُ منها، ولا أظنكِ مختلفة عنهم...!

إذاً.. فلربما وجدتُ الطريقةَ لجذبِ انتباهِ عائلتكِ، وما أجمل أنها هوايتي ذاتها..! نعم... الكتابةُ هي هوايتي الوحيدةُ في هذه الحياه.. أحبُّ نظمَ الكلامِ شعراً ونثراً منذُّ عرفتُ القلم.. لكني لا أحبُّ المباهاة.. لم أنشر شيئاً كتبتهُ يوماً ما.. لكني وبعد ان عرفتكِ أظنُّ بأني سأفعلُ ذلك.. ليس حباً للمباهاةِ ولكن لعلي أجدُ السبيلَ للوصولِ إليكِ بذلك.

سأخبركِ أمراً يا جمانُ، لعلي تأثرتُ كثيراً بإحدى الرواياتِ التي قرأتها.. أصبحتُ أتبنى الكثير من أفكارِ تلك الرواية.. أصبحتْ تلك

الروايةُ وأفكارها جزءاً من حياتي.. روايةُ "فلتغفري" للكاتبةِ أثير النشمي، كانت هي تلك الروايةِ التي أثرت بي كثيراً يا جمان.. ولكم كانت أثيرُ موفقةً في طرحها!؛ في أولِ يومٍ رأيتكِ فيهِ يا جمانُ كنتُ قد قررتُ الدخول إلى موقعِ "FUTURE ME" الذي يختصُّ بإرسالِ رسائل من شخصكَ الحاضرُ إلى شخصكَ في المستقبل، كنتُ قد قرأتُ عن هذا الموقعِ في تلكَ الرواية، دخلتُ لأكتبَ رسالة إليَّ في المستقبلِ لتصلني بعد شهر من تاريخِ كتابتها.. كتبتها لأتحدى شخصيَ المستقبليُ إن كان سيحصلُ عليكِ أم لا!.. في هذا اليومِ وصلتني تلك الرسالة المرتقبة، وصلتني لتنقلَ تحدياتيَ

الماضية لنفسي، قرأتُ تلك الرسالة بتمعن وكأنها غريبةٌ علي، كان مضمونها:

"ماجد.. أنا أنتَ في الماضي؛ قررتُ الكتابةَ إليكَ لأرى مدى ما وصلتَ إليه.

في الماضي -وفي تاريخِ 2019/2/12م تحديداً- كان أولُ عهدٍ لك بجمانة.. كنتَ جباناً جداً في ذلك اليومِ لدرجة لم تعرف حتى اسمها!.. لكنكَ عزمتَ على كسرِ قيدكَ ذاك. أخبرْ بمنشور عن المستجداتِ التي حصلتْ خلال تلك الفترة، دَعْ منشوركَ كإجابةٍ لرسالتي هذه مدرجاً معها.
بالمناسبةِ... هل عرفتَ اسمها؟ ماذا عرفتَ عنها أيضا؟ وهل علمتْ جمانةُ

بحبكَ؟.. إن كانت قد علمت، فما كانت ردةُ فعلها؟ وهل باتتْ تحبكَ؟.

ملاحظة: كنتَ قد عزمتَ على وضعِ رسالةٍ مستقبليةٍ أخرى بمجردِ قراءتكَ لهذه الرسالة، كنتَ عازماً على ربطها بحدثٍ متعلق بجمانة، لا تَنْسَ ذلك."

أكملتُ قراءتها ثمَّ وضعتُ ردي في منشور كما طلبَ مني ماجدي الماضي؛ كان ردي: " ماجدي... وصلتني في هذا اليومِ رسالتكَ إليَّ من الماضي، قرأتها بانبهارٍ تامٍ!.. كنتُ قد نسيتُ أمرها تماماً، صحيحٌ أن فترةَ شهرٍ فقط ليستْ كافيةً لينسى موضوع كهذا بالنسبةِ لأيّ شخصٍ!... لكنها كافية

بالنسبةِ لي!، فخلال هذا الشهر أنستني جمانةُ حتى نفسي، فكيفَ برسالةٍ!.

ماجدي الماضي؛ أنا أنكرُ أني جبانٌ في الحب إن صارحني بذلك شخصٌ ما، فكيف أجيبُ وقد صارحتني أنتَ هذه المرة؟!

نعم، لقد عرفتُ اسمَ جمانةَ الحقيقي، اسمها راغدةٌ ، بيدَ أني إلى الآن وأنا أسميها جمانة!.

لقد عرفتُ عنها الكثير.. تعز مسقطُ رأسها.. عرفتُ تاريخ ميلادها.. هواياتها، وغير ذلك، بيدَ أنها لا تعلمُ عني شيئاً حتى الآن، لا تعلمُ بحبي لها ولا حتى من أنا!.. أنا آسفٌ... لم أكسر قيدي كما وعدتكَ حتى الآن، لكن ربما سأفعلُ يوماً ما..!

وفي خصوص ملحوظتكَ... نعم سأضعُ رسالةً مستقبليةً أخرى، سأرسلها إلى ماجدي المستقبلي، سأجعلهُ يعدني بكسرِ هذا القيد، عله أن يفيَ بوعدهِ على غرارِ ما فعلتهُ معكَ!.

بالمناسبةِ: سيكونُ 2019/7/8م هو تاريخ

حصولي على هذه الرسالةِ فلقد أصبحَ هذا اليوم ذا بصمةٍ في حياتي؛ ذكرى مولد جمانة".

أكملتُ هذا الرد ثم نشرتهُ في صفحتي كما وعدتُّ، كنتُ قلقاً من أن تقرأهُ إحدى أخواتكِ أو فرداً من عائلتكِ يا جمانةُ فلم أضمنهُ الكثير من البياناتِ عنكِ.. جعلتهُ مبهماً جداً ، ليس هذا فحسب!.. بل قمتُ

بتضييقِ نطاقِ المشاهدةِ؛ وقد خذلتُ ماجدي الماضي مجدداً!.

بدأتْ الإشعاراتُ تتوافدُ عليَّ واحداً تِلوَ الآخر ما بين إعجاباتٍ وتعليقاتٍ، كان أبرزُ ما وصلني هو تعليقٌ من شخصٍ عابرٍ يقولُ فيهِ: "ماجد.. لم أكن أعرفكَ من قبل، لكني ومن خلالِ هذا المنشورِ عرفتُ عنكَ الكثير؛ أنتَ لستَ جباناً في الحب كما تزعمُ ولا حتى شخصاً سيئاً خلفَ وعدهُ مع نفسه!.. فكلُّ ما فعلتهُ له مبرراته.

أنا مثلكَ تماماً... أخافُ الغوصَ فيما أطلقتَ عليهِ بحر الحب، ليس جُبناً يا ماجدُ بل خشيةَ كسرِ القلوب!

ماجد.. أعرفُ ما تمرُّ به الآن، ولقد مررتُ بظروفٍ مشابهةٍ تماماً... فقط ثقْ بقلبكَ واعلم أنهُ لنْ يضيعَ حبكَ الطاهر."...

قرأتُ هذا الرد يا جمانُ ولكم كان برداً وسلاماً على قلبي!.. كان أشبهُ بقطراتِ ماءٍ عذبةٍ باردةٍ انهمرتْ على جمرةٍ فأطفأتْ لهيبها.

نعم يا جمانُ.. أطفأتْ لهيبَ قلبي تلك الكلمات!.. أكدت لي حينها أني لستُ جباناً في الحبّ ِكما كنتُ أظن!.. فبعدَ رسالةِ ذلك العابرِ زدتُ ثقةً في إمكانيتي الحصول عليكِ فبتُّ ليلتي سعيداً... ويالها من ليلةٍ!

****

لا زلتُ أذكرُ في إحدى ليالي العشرِ من رمضان، في ليلةِ السابعِ والعشرينَ تحديداً، وبينما كنتُ أعملُ في أحدِ المراكزِ، إذ بي أرى قمري!

نعم.. يُكادُ يُتفقُ بأن السابعِ والعشرينَ من رمضانِ هي ليلةُ القدر، وهذا أقربُ الأقوال، وأظنني بتُّ واثقاً من أنها كذلك!.. كيف لا وقد رأيتكِ في ذلكَ اليومِ مصادفةٍ يا جمان!؛ كنتُ منهمكاً في عملي الذي أخترتهُ لقتلِ الوقتِ، كان الناس يتوافدونَ إلى مركزِ الملابسِ ذهاباً وإياباً، وبينما هم كذلك لمحتكِ فجأةً دلفتِ إلى القسمِ الذي أنا فيهِ، لم أصدقْ عينايَ حينها.. وقفتُ مشدوهاً لا حراك.. جبنتُ كثيراً في ذلك

الوقتِ يا جمان!.. ليتني امتلكتُ الجرأةَ لأكون أنا من يباشركِ!.. ليتني استغليتُ الفرصةَ لأعلنَ لكِ عن حبي!.. ليتني صِحتُ بكلّ صوتي أحبكِ!.. ليتني فعلتُ كلَّ شيءٍ كي أثبتَ لكِ حبي!.. ولكني لم أفعل شيء سوى الاستناد على الحائطِ بكلّ جبن حتى أفيقُ من دهشتي كمن يندبُ حظهُ العاثر!.

أفقتُ من الموقفِ إثرَ مغادرتكِ!.. أكملتُ عملي ثم عدتُ للبيتِ وأنا ما بينَ تعاسةٍ وسعادةٍ، سعادةُ رؤيتكِ أنستنيها تعاسةُ الموقف!.

****

بعد رمضان زرتُ قريتي الصغيرة و قضيتُ فيها بقيةَ إجازتي الصيفية، مرَّتِ الأيامُ

سريعاً يا جمانُ.. انطوتِ الأشهرُ في لحظاتٍ، كان الثامن من يوليو يقرعُ الطبولَ منذراً باقترابهِ، كنتُ قد قطعتُ وعداً لماجدي الماضي بأن أكتبَ رسالةً مستقبلية، كان يفترضُ أن تصلني بعد لحظاتٍ ولكنها لن تصل!

نعم يا جمان.. لن تصل؛ ليس خللاً في التوقيتِ أو تقصيراً من الموقعِ المسؤول!... بل لأني خذلتُ ماجدي الماضي مجدداً ولم أكتبْ تلك الرسالة!؛ لم أجد إنجازات تشجعني لأثبتها في رساله.. لم أجد شيء يستحقُّ أن أكتبهُ لشخصيَ المستقبلي ففضلتُ ألا أفعل!.

أتعلمينَ أمراً يا جمانةُ!.. لطالما انتظرتُ هذا اليوم بكل شغفٍ!.. كان يُخَيَّلُ لي مدى الأشياء التي ستتغيرُ في هذا اليوم!.. كنتُ أحلمُ بمجيئهِ ونحنُ على وفاقٍ وكلانا يعرفُ الآخر، أو بالأحرى تعرفينَ مدى حبي لكِ، كنتُ أحلمُ بأن آتي إليكِ في هذا اليومِ قبل الجميعِ حاملاً لكِ هديتي.. أصلُ إلى جوارِ منزلكِ في سيارةٍ فارهةٍ فاخرةٍ.. يهتزُّ جوالكِ برسالةٍ مني.. تفتحينَ تلك الرسالة ثم تسرعينَ باتجاهِ الشرفةِ غيرُ مصدقة.. ترينني فتقطعينَ الدرجَ، نزولاً إليَّ، في لحظاتٍ.. أنزلُ من سيارتي تلك -كمن خرجَ من سجنهِ نحو الحريةِ- متجهاً صوبكِ.. أنزعُ قبعتي -كما يحدث في الأفلام- لأخرجَ منها الخاتم الذي خبأتهُ لهذا اليوم منذ فترة..

أطلبُ يدكِ بعد انحناءةٍ تركيةٍ تعبرُ عن مدى هيامي بكِ وغرامي لكِ.. لا تصدقينَ الموقف.. أضاعفُ من ذهولكِ بمظروفٍ صغيرٍ أحطهُ بين يديكِ، تفتحينَ المظروفَ لتُذْهلي بتذكرتينِ إلى باريس لقضاءِ شهرِ العسلِ؛ حتى في تخيلاتي لم أنسَ حلمكِ في السفرِ إلى باريس، لطالما تمنيتُ لو أمكنني تحقيقُ حلمكِ هذا.. لكنَّ أحلامِ اليقظةِ كثيرةٌ جِدًّ واهيةٍ يا جمان!.. أفاجأُ بالواقعِ الذي أنا فيهِ، أنظرُ إلى ساعتي المهترئةُ لأراها تقتربُ من الثانيةَ عشرَ صباحاً، الثامن من يوليو على بُعدِ هنيهةٍ فقط وكلُّ أحلامي متبخرة!.. لِمَ كلُّ هذا البؤس؟!.

كأضعفِ إيمانٍ، قررتُ أن أكونَ أولَ من يهنئكِ في هذا اليومِ يا جمانُ، بدأتُ بكتابةِ رسالةِ تهنئةٍ مليئةٍ بمبرراتٍ للهدايا التي لم أستطعْ تقديمها، كتبتُ بيدٍ يُطَوّقُها الثِقَلُ:

"في 8/7/1999م، تفتحتِ الازهارُ دون

اعتباراتِ الفصول، تراقصتِ الأشجارُ لميلادٍ جديد، كان ميلاد فتاةٍ ملائكيةٍ اسمها راغدة، خرجتْ هذه الفتاة الى حيزِ الوجود مميزةً كزهرةِ نرجسٍ تفتحت في صحراءٍ قاحله حتى لَحِظَ الجميع جمالها.. وقد كانت تلك الفتاة انتِ يا راغدة !

راغدة.. هل اخبركِ شخصٌ قبلي عن ابتسامتكِ الملائكية البريئة كالأطفال؟.. عن طيبة قلبكِ وعفويتكِ؟.. عن كل تفاصيلكِ

بشكلٍ عام؟!" .. ثم بدأتُ تبريراتي عن الهدايا قائلاً: "راغدة.. فكرتُ أيُّ هديةٍ ستلائمكِ اكثر، ظللتُ محتاراً حدَّ الثمالة، فكرتُ في الوردِ وسرعان ما تلاشت الفكرة تحت بند "الورد لا يهدى لمثله".. ثم عقد مصاغ من اللؤلؤ والجواهر، فشلت تلك الفكرة تماماً.. نعم يا راغدة فشلتْ تماما، فلقد اسماكِ قلبي جمانة.. والجمانةُ هي لؤلؤة من أفخر أنواع اللآلئ، فكيف أهدي الجواهر لجوهرةٍ أفخر منها! .. فكرتُ في قنينةِ عطرٍ فاخر.. غِرتُ عليكِ من رائحة العطر يا راغدة فتخليتُ عن الفكرةِ تماماً!.. فَطِنْتُ أخيراً الى أنَّ دعوة في ظهرِ الغيب ستلائمكِ أكثر، حماكِ الله حيثما حللتِ

واينما ارتحلتِ؛ عيد ميلادكِ سعيد وعقبى لأعوامٍ طوالٍ تحفها السعادة"

أكملتُ هذه الرسالةَ يا جمانةُ، ولكني كالعادةِ خذلتُ قلبي ولم أرسلها إليكِ!.

ظلتْ تلك الرسالة حبيسة جوالي كسابقاتها.. لم أرد إرسالها كرسالةٍ من عابرٍ لا تعلمين عنه شيئاً حتى الآن..!

بدأتِ التهاني تتوافد إليكِ يا راغدة.. كنتُ أتمنى لو امتلكتُ الشجاعة لإرسالِ تهنئتي الخاصة!، لكني خفتُ أن يُكسر قلبُ أحدنا ففضلتُ ألا أرسلها.

****

تمضي الأيام، تتعاقبُ الليالي، الجمودُ ذاته، روتينٌ ممل، توشكُ الإجازةُ على الخلاص، غادرتُ قريتي باتجاهِ صنعاء، تلك المدينةُ الأزليةُ العتيقة، مدينةُ سام، وصلتُ في الخامسةِ مساء، شوارعُ مكتظة.. ضوضاءُ مزعجة.. الباعةُ على الرصيفِ.. المنظرُ ذاتهُ الذي غادرتهُ قبل ثلاثة أشهر.. حتى لكأنَّ بائعةَ اللحوحِ لم تبرحْ مكانها منذُ ذلك اليوم!.. ما اتعسَ هذا الجمود من حولي!.. بتُّ أكرهُ كلَّ شيءٍ تتكررُ عَليَّ ملامحه؛ لعلَّ ذلك بسببِ الجمود العاطفي الذي عشتهُ... حتى باتَ كل شيءٍ يذكرني به.

في اليومِ التالي، ذهبتُ إلى الجامعةِ لسدادِ رسومِ التسجيل، انتظرتُ دوري في طوابير طويلةٍ مملةٍ تحت لهيب الشمس الحارق، كانت الساعةُ تمرُّ ببطءٍ شديدٍ وهيَ تكادُ تقتربُ من الحادية عشرَ صباحاً، فجأةً رأيتكِ يا جمانُ مقبلةٌ من بعيدٍ، عجبتُ للعبةِ الحظِّ الذي بدأَ تعيساً في اولِ اليومِ ثم ها هو ذا يبرقُ ثغرهُ وهو يبتسمُ لي؛ اقتربتِ أكثرَ فأكثرَ حتى وصلتِ إلى طوابيرِ الفتياتِ، تلك الطوابيرُ التي نظرتُ إليها قبل مجيئكِ لأرى فيها أشكالاً وألواناً ما أنْزلَ بها من سلطان!.. ثمَّ بعد أن وصلتي ترآءتْ لي تلك الطوابيرُ جميلةٌ كقوسِ قزح يمتدُّ مزيناً للسماءِ.. لا أدري كيف نظرتْ عيني هذه المرة!.. يقال: " تختلفُ وجهاتُ النظرِ من

شخصٍ لآخرٍ".. مجردُ وجهة النظر!.. لكن نظرةَ عيني اختلفتْ وليس مجردُ الوجهة..!

وصلَ دوري بسرعةٍ كما خُيلَ لي، كنتُ أرى حركة غير اعتيادية وسرعة في إنجازِ العمل من قِبَلِ المسؤولين!

.. "لمَ هذه السرعةُ الآن!.. أريدُ البقاءَ أكثر"... كان هتافاً في داخلي يرددُ تلك العبارة، نظرتُ في ساعةِ يدي لأذهلَ وأنا اراها تركضُ نحوَ الواحدةِ ظهراً!.. رددتُ متأتِئً " تفضل" بعد أن سمعتُ هُتافَ المسؤولِ "أسرع واعطنا البطاقة".

أنهيتُ ما أتيتُ لأجلهِ، لكني لم أكن أريدُ العودة للمنزلِ بعد، كنتُ أراقبكِ بخلسةٍ... أستمتعُ وأنا أرى أشعةَ الشمسِ -التي

كنتِ تتضايقينَ منها- وهي تنعكسُ على وجهكِ وكأنها تصطدمُ بمرآةٍ!.. كنتُ أفكرُ لو بإمكاني أن أتقدمَ نحوكِ بخطاً واثقةٍ لآخذَ منكِ بطاقتكِ ثم أرجعُ القهقرى صوبَ شباك الاستلام، اخترتُ القهقرى حتى لا تغيبين عن ناظري... أُكملُ إجراءات التسجيل والدفع ثم اعودُ إليكِ حاملاً السند الذي استلمتهُ نيابةً عنكِ.. أحركُ يدي نحوكِ لأعطيكِ إياهُ.. تمدينَ يدكِ فتتلامسُ يدانا ثم بحركةِ حياءٍ خفيفةٍ تسحبينَ يدكِ.. أعطيهِ لكِ ثم أسمعُ "شكراً" بصوتٍ خافتٍ يملأهُ الحياءُ وبعد محاولاتٍ فاشلةٍ في إخفاءِ ابتسامةٍ خفيفةٍ كانت تبرقُ من ثناياكِ .. "لا شكرَ على واجبٍ".. أجيبُ بذلك ثمَّ أديرُ ظَهري مغادراً لأظهرَ لكِ أيُّ رجل نبيل أنا

عليه! ... "وداعاً راغدة"، أفقتُ من شرودي إثرَ سماعِ تلك العبارة.. كان مصدرُ الصوتِ إحدى زميلاتكِ وهي تودعكِ بعد أن أنهيتما التسجيل!.. أنهيتما عملكما أثناءَ انغماسي في أحلامِ اليقظةِ.. يا للسخفِ الذي كنتُ فيه!.

عدتُ إلى المنزلِ بعد أن رأيتكِ غادرتِ فعلاً.. لم يكن هناكَ شيءٌ يستحقُّ المكوثَ اكثرُ بعد مغادرتكِ، فغادرتُ!.

****

حياةٌ رتيبةٌ جِدًّ مملة، ذاتُ الأشكالِ المقيتة، ذاتُ الضوضاءِ الرهيبة، الشوارعُ المكتظةُ ذاتها!.. حتى العصافيرُ تغني ذاتُ الأغنيةِ التي تشدو بها كلَّ صباحٍ!.. حتى

الشمسُ أسدلتْ أشعتها -كعادتها- على وجهي لتنبئني ببزوغِ فجر جديدٍ، عفواً.. فلا جديد فيهِ سوى اسمه!"، استيقظتُ على إثرِ ذلك متجهاً نحو دورةِ المياهِ لأغسلَ وجهي استعداداً لأولِ يومٍ دراسي في هذه السنةِ.. أنظرُ إلى صنبورِ المياهِ وهو يُدرُّ الماء ببخل مقيت.. بدفع صغيرة لا تكادُ تملأ راحةَ اليد، تمتمتُ في مضض "منذُ سنتانِ وأنتَ لم تتغير!"، لبستُ ملابسي سريعاً ثم دلفتُ الدَرَجَ وأنا أستعدُّ لألقي التحيةَ على العمِ نشوان، ذهلتُ حينَ لم أرهُ في مكانهِ... شعرتُ بالقلقِ عليهِ بادئ الأمرِ إلا أنني سرعانَ ما انتابتني نزوة أنانية حينَ أحسستُ براحةٍ في نفسي!.. لقد شعرتُ بأنَّ شيئاً ما أخيراً قد تغيرَ عن الجمودِ الذي

أَلِفْتُهُ كلَّ يوم.. عن النظامِ الروتينيِ الذي لا يتجهُ فيهِ شيءٌ صوبَ التجديد!؛ نعم.. فذلكَ الحارسُ العجوز "العمُّ نشوان" منذُ أن عرفتهُ وأنا أراهُ كلَّ صباح يجلسُ بكلِّ وقار على كرسيهِ المواجهةِ لبابِ العمارةِ.. طارحاً إحدى رجليهِ على الأخرى وبين يديهِ جريدةً يقرأُها.. لا يبرحُ مكانهُ ولا يتركُ جريدتهُ وكأنهُ أحدُ رواد العلمِ والمعرفة.. يتحدثُ عن السياسةِ من كرسيهِ المهترئِ وكأنهُ أفلاطون، واليومُ ها هو الكرسيُّ بلا أفلاطونِه!... تمتمتُ بسعادةٍ "ها قد تغيرَ شيءٌ ما أخيراً هذا اليوم!".

قطعتُ الشارعَ لأستقلَّ إحدى الباصاتِ التي تتجهُ نحو الجامعة وأنا في نُوْبَتَيْ قلق

وسرور، أما القلقُ فعلى العمِّ نشوان.. وأما السرورُ فلأنَّ شيئاً ما قد تغيرَ أخيراً!

وصلتُ الجامعةَ وكأنَّ جميعَ الأشياءِ قد تغيرتْ من حولي أخيراً، كنتُ سعيداً جداً، زادتْ سعادتي أكثر عندما رأيتُ جمانتي... "لقد باتَ القدرُ سخياً معي هذا اليوم"، تفوهتُ بتلك العبارةِ لأرى بعد ذلك مدى الحيرة التي ارتسمتْ على وجهِ سامح من قولي تلكَ العبارةِ دونما سابقةُ إنذار.

- "ما المناسبةُ لهذه العبارة"... سألني صديقي سامح.

"اااممْ.. لا شيء".. رددتُ عليهِ وأنا أخفي ابتسامه.

- "أقسمُ أن هناكَ شيءٌ ما تحيكهُ من وراءِ ظهري".. ردَّ سامح.

"ستعرفُ في الوقتِ المحدد" .. تمتمتُ لسامح بتلك العبارةِ وأنا أتابعكِ النظرات في خلسةٍ يا جمانة.

بدأتِ المحاضرةُ وأنا لا زلتُ أرى أن هذا اليوم هو بدايةُ التغيير الذي لطالما حلمتُ به، كيف لا وكرسيُّ العمّ نشوانُ فاضيةٌ هذا اليوم!.. كيف لا وقدِ اكتحلتْ عيناىَ برؤيتكِ بمجردِ أن وصلتُ الجامعة!.. كيف لا والمحاضرة اليوم ليستْ مملةٌ كسابقاتها ولا مستهلةٌ بتلك المقدماتِ الطللية التي لطالما استعملها الدكاترة!.

مَرَّتِ المحاضرةُ سريعةٌ جداً، لم تكن طويلةً ولا مملةٌ كمحاضراتِ السنةِ الماضية، انتهتِ المحاضرةُ فعدتُ للمنزلِ سريعاً وأنا على أفضلِ مزاجٍ، كانت الأمور التي حَصَلَتِ اليومُ قد أعطتني دفعة من الأملِ.. أعطتني حافزاً لتغييرِ شغليَ الشاغل الذي لطالما قتلني جموده!.. حافزاً لفعلِ شيءٍ يكون أساس التغيير.. يكون هو من سيحملُ عني ثِقَلُ الحب الذي لطالما تعذبتُ تحت وطأتهِ لفترةٍ طويلةٍ؛ من بينِ كلّ أفكارِ التغييرِ تلك، طفتْ فكرةُ "الرواية".. روايةٌ أضمنها أسرارَ حبي لكِ.. أجعلها وكيلةٌ عني لديكِ علها تخبركِ بأنَّ هناكَ خلفَ قضبانِ القيمِ "عاشقٌ جبان" يدعى "ماجد" لم يستطع كسر تلك القضبانِ لمتانتها.. لم يستطع

الفرار من زنزانتهِ الكئيبةِ بسببِ الحراسةِ المشددةِ التي فُرضت عليه؛ قيمٌ وعادات، تقاليدٌ ومشاعر، معتقداتٌ.. كلُّ تلك رابضةٌ على بابِ الزنزانةِ كي لا يفلتْ؛ لكنَّ هذا العاشق يموتُ في هيامكِ.. منعتهُ القضبانُ من الوصولِ إليكِ.. حجبتْ عنكِ خبرهُ ومدى حبهِ لكِ.. جعلتهُ في متاهةٍ.. حاولَ صراعها ونفسهُ ليصلَ إليكِ مخبراً بحبهِ لكنها صرعتهُ!، فصاحَ صيحةً أخيرةً من خلفِ القضبانِ وفي ظلامِ الليلِ البهيمِ، ليصلَ صوتهُ على شكلِ روايةٍ أسماها "العاشقُ الجبان".. ضمنها اعترافاتٍ بحبهِ لكِ.. اعترافات عن مدى خيبتهِ آملاً وصولها إليكِ مخبرةً بحقيقةِ خبرهِ.

عزمتُ أن أجعلَ مولدَ هذه الروايةِ، أو الرسالةِ بالأصحِ، هو الرابعُ والعشرونَ من سبتمبر، تاريخُ ميلادي، وذلكَ لأجعلُ من هذا اليومِ يوماً ولدتُّ فيهِ مرتين.. مرةٌ على هيئتي الحقيقية، وأخرى ولدتُّ فيها بمولدِ حبي لكِ.

جمانةُ.. هذه رسالةٌ من القلبِ للقلبِ، ضمنتها مشاعرُ تختلجُ في نفسي منذُ أمد حتى كادت تغرقني!.. فلتعلمِ أنَّ كلَّ حرفٍ هنا ليس كأحرفِ اللغةِ سهلاً الكتابةِ.. بل خُطَّ بمشاعر فياضةٍ بالحب.. تأملُ في اللقاءِ.. مشاعرُ مرهفةٌ أضنتها فكرةُ الوصالِ.. ترجو بلوغَ الهدف.. ولأنتِ أنتِ الهدف؛ فإن وصلتكِ هذه المشاعرُ فأقرئيها

بعينيكِ لا بفمكِ.. وعيها بقلبكِ لا بعقلكِ؛ وأنتِ تقرئينها.. حُطّي نفسكِ مكانَ ذاكَ القابع خلف القضبان واحكمِ عليهِ بالبراءةِ أو الإعدام.. فإن استوطنتْ مشاعرهُ قلبكِ واستقرتْ فيهِ، فليغتسلْ قلبكِ ثمَّ ليتوضأ قبل أن يدخلَ في هذا الحب.. ثمَّ لترسلِ لذاكَ القابعِ خلفَ القضبانِ من يبلغهُ.

ماجد

2019/9/24م

شابٌ عشريني العمر . . يمنيٌ الأصل . . تعزيٌ المسقط . . وحيدٌ مع الكتب . . صديقٌ للقلم . . يكتبُ السعادة منذُ أعوام فيمسحها الحزن !

عبدالله عاطف المخلافي

رواية العاشق الجبان